النقد العربي بين التأصيل والتبعية

• أ.د حسن عليان

تعد أسئلة كثيرة تتعالق في الذهن، وأهمها ما دور التاريخ بمشكّلاته ومظاهره في بلورة المدارس النقدية واتجاهاتها؟

إن نظرة سريعة لدور التاريخ ولدوراته الزمنية – بفاعلياته السياسية وتراكماته الحضارية ولدور العقل البشري في الخلق والابتكار والتجديد، وأحياناً في الإحباط والتخلف والتدمير، وتقييد الفكر، وإجهاض منجزاته وتوالداته – تجعلنا نقف على نتاجات هذا التاريخ الإيجابية والسلبية، وعلى دورها في مسيرة التقدم الإنسانية.

وبقراءة الفكر العربي النقدي – مجال هذا الموضوع – نجد أنه كان انطباعياً في العصر الجاهلي بما يتناسب وبنية هذا الفكر، نتاج الحراك الاجتماعي بعلائقه الذاتية والجماعية وبحدود مفاهيم ذلك المجتمع. وبالفتوحات الإسلامية في ظل الدعوة الإسلامية؛ كان نتاج الانفتاح على العالم الغربي – الفكر اليوناني والروماني – وعلى الفكر الفارسي، رؤى ثقافية وفكرية، تتصل بحقل الشعر والأدب والفلسفة واللاهوت، وكلها كان لها دورها في تنمية العقل العربي وتطويره. في وقت كان العقل العربي فيه متعطشاً للثقافة والعلم، ومنفتحاً على الآخر، فقد استطاع أن يستوعب الثقافة الغربية في فترات زمنية قصيرة، وأن يترجمها إلى العربية، وبخاصة في العصر العباسي الأول عصر الاطلاع على الثقافة الغربية وفلسفتها، واستطاع أن يضع تصوراته لكثير من قضايا الفكر العربي آنذاك، الأدبية منها والفكرية والفلسفية.

وفي ضوء ذلك اهتم علماء اللغة والبلاغيون والمتكلمون والفلاسفة، أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد بدراسة اللفظ والمعنى في الشعر العربي القديم، ومشكّلات الصورة الأدبية؛ الخيال والتخييل والتمثيل، طبيعة وفاعلية، كما اهتم النقاد أمثال ابن طباطبا وابن رشيق وقدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني بالصدق الفني، وبنظرية المحاكاة، وبدلالات المعنى القريبة والبعيدة من الأفكار الفلسفية والتصورات، التي يطلقها التخيل والتمثيل، وفكرة الصياغة الشعرية لدى الجاحظ. وقد التقى مفهوم اللغة في العصور الوسطى لدى الشرق والغرب مع مفهوم الثوب أو الكساء. وشاع هذا المصطلح في التراث العربي. ويماثل الثوب أو الكساء كمفهوم اللغة مفهوم الجاحظ أو يطابقه في أن الشعر صياغة وجنس من التصوير ولم يخرج ابن خلدون عن هذه الرؤية في قضيتي اللفظ والمعنى. وقد صنّف الأنواع البلاغية في الصورة، كما اهتم بعلم الأدب المفتوح بانفتاح الأوعية الثقافية زماناً ومكاناً.

وقد عالج النقد العربي القديم قضايا متعددة سواء المستمدة من الآداب الغربية آنذاك أم الموضوعة وفق فلسفته التجديدية في ذلك العصر، فهو لم يتوقف عند المفاهيم الغربية لكثير من مسائل النقد، وبخاصة ما يتصل بالشعر رؤية وأداة وصياغة، وكذلك بالفلسفة التي انفتح عليها الفلاسفة العرب، وأضافوا لها الكثير؛ رؤيةً ودراسةً ومقارنة كانت بنت الثقافة الإسلامية الجديدة. كما قدّم النقد العربي عبر قرونه المتعددة مفاهيمه المتميزة التي تكشف عن «تصوره الخاص لطبيعة الصورة الفنية

* جامعة فيلادلفيا

وأهميتها ووظيفتها، وأفاد في تكوين هذه المفاهيم من تحليله البلاغي للنصوص الشعرية والقرآنية، كما أفاد من التراث اليوناني السابق عليه» كما يقول د.جابر عصفور.

وتطرق النقد العربي القديم إلى مفهوم الصدق والكذب في إطاره الفني، وكذلك الصنعة والإلحاح على الذاكرة عند حازم القرطاجني، واللفظ والمعنى عند الجاحظ، والعلاقة بين الرسم والشعر والتصوير ووظائف الصورة ووظائف الشعر والملكة الفنية وغيرها من القضايا التي شغلت فكر النقاد العرب وثقافتهم.

وقد وضع ابن خلدون حداً للشعر والنثر وفق خصائص كل منهما ومجالاته وأغراضه، وتفسح رؤيته لذلك المجال للتساؤل عن مدى اهتمام النقاد والفلاسفة العرب والمسلمين بوضع نظرية للأدب أو نظرية للشعر على قاعدة أن الأدب اتخذ منذ نشأته اتجاهين هما: التفسير والتنظير. إنّ من الصعوبة بمكان أن نجد في تراثنا العربي القديم نظرية واضحة المعالم في الأجناس الأدبية المختلفة، وعلى الرغم من ذلك فإن النقاد العرب القدامى والفلاسفة شغلوا أنفسهم بالتفكير في وضع أسس لتلك الأجناس، وبخاصة ثنائية الشعر والنثر. وقد طرحوا أسئلة كثيرة حول ماهية الشعر والنثر: هل هما نوعان أم جنسان؟ وتوصل الفلاسفة والنقاد إلى أن الجنس أعمّ من النوع.

وتجدر الإشارة إلى أن جذوة النقد العربي القديم قد خبت، وفقد النقد ظلّه في العصور المملوكية لضعف الأدب شكلاً ومضموناً، وبخاصة في العصرين الثاني والثالث؛ لأسباب كثيرة ومتعددة أهمها، تولي السلطة أجناس غير عربية فلم يحفلوا بالشعر وبالنقد؛ لضعف لغتهم العربية واعوجاج ألسنتهم، لذا بهتت صورة الأدب بوجه عام، وتحوّل الشعر إلى مدائح فقدت ملامحها اللغوية والفنية، واستمر الأمر حتى العصر الحديث، حيث كان الانفتاح على الغرب بفعل عوامل متعددة أهمها: الاستعمار الغربي الذي احتل معظم أرجاء الوطن العربي، وقسّمه إلى كانتونات صغيرة ليسهل عليه قيادها، وكان للمدارس دور كبير في هذا الانفتاح، وكذلك بفعل الترجمة وغيرها، الأمر الذي عمل على إطلالة المفكرين والأدباء والفلاسفة العرب على نتاج الفكر الغربي في شتى المجالات.

وقد وقف العقل العربي من المدخولات الحضارية ومن الفكر الغربي ثلاثة مواقف في بدايات عصر النهضة، فدعا التيار الأول إلى إحياء التراث العربي والتمسك به دون غيره للنهوض بالأمة من جديد، وذلك في إطار وعيه أن الأمة لا تنبني إلاّ على الموروث الفكري والحضاري بعيداً عن مستجدات العصر، وعما وصل إليه الغرب من تقنية وعلم وثقافة. أما التيار الثاني فقد دعا إلى قطيعة كاملة مع التراث، وإلى الأخذ بكل أسباب تقنيات العلم والفكر والتطور؛ حتى تستطيع الأمة اللحاق بركب التحضر والتمدين. ودعا التيار الثالث إلى الوسطية، وذلك بالأخذ من التراث بما يفيد في إحياء فكر الأمة وفلسفتها وفي العمل على نهضتها، والأخذ كذلك مما وصل إليه الغرب من تقنية علمية، وتطور فكري وحضاري، بعيداً عن السلبية ومواطن الخلل الاجتماعي التي لا تتماشى وتراثه ومعتقده، وذلك حفاظاً على الهوية القومية والثقافية.

لقد عمل الغرب على غزو الوطن العربي ثقافياً، ونجح إلى حدٍّ ما، دون أن يبدي المثقفون العرب وفلاسفتهم حراكاً، وذلك لقلّة أسلحة المقاومة الثقافية والفكرية، وعجزها عن مواجهة المدّ الحضاري الغربي بصورة لم يقو الفكر العربي على مواجهتها، فانجرف في تيارها على مختلف الصعد؛ النقدية والأدبية والفلسفية والاجتماعية والثقافية، برغبة أو دون رغبة؛ لأنه لا يمتلك مقومات إثبات الذات فكراً وحضارة، ولأنه لم تتوفر له إمكانات الرؤية منهجاً وتطبيقاً، وذلك لتسارع إيقاع العصر، فبدا العقل العربي مقلداً لا منتجاً، لذا لم يخرج من عباءة الغرب، وساهم مثقفو الوطن العربي، في هذه التبعية الثقافية والفكرية في مجال الأدب والنقد.

ووفق هذه الرؤية فهل نحن بحاجة إلى محاولات جادة لإيجاد نظرية نقدية عربية جديدة؟ وما الأسس اللازمة لإيجادها؟ وهل يتيح لنا الواقع الثقافي العربي ذلك في ظل تدفق الفكر الغربي في الساحة العربية، وفي ظل بضاعته متعددة الألوان والأحجام والأشكال في ساحة الأدب والفكر والنقد؟ وهل تسمح الترجمات لمدارس النقد الغربي وتدفقها في الساحة العربية أن يلتقط العقل العربي أنفاسه ليعيد بث الحياة في شراييه النقدية والفكرية والأدبية القديمة، ويعمل على إيجاد رؤية ومنهج نقدي جديدين كما فعل الفلاسفة والنقاد العرب القدامى؟ أم أن الواقع النقدي في الساحة العربية، المترجم عن الغرب يحول دون ذلك؟

إن انفتاح الساحة الثقافية في المغرب العربي على الثقافة الفرنسية عملت دون كلل على ترجمة هذه الثقافة في مختلف الحقول، وذلك لارتباطها بفرنسا بحكم الاحتلال الفرنسي لأقطار المغرب العربي، ولارتباطها بالثقافة الفرانكوفونية، ولقلّة تواصله مع المشرق العربي، مما شكل لهذه البلدان تقاليد ثقافية لم تستطع الانزياح عنها، أو الفكاك منها. ويكفي أن نشير إلى بعض كتب النقد المترجمة والموضوعة التي تأثرت جملةً وتفصيلاً بالنقد الغربي، وعملت على نقل هذه الثقافة النقدية لبنية العقل العربي ومثال ذلك: د. محمد غنيمي هلال في كتابه النقد الأدبي الحديث والأدب المقارن وعبد الجبار المطلبي في قضايا في النقد الأدبي، وموسوعة المصطلح النقدي لعبد الواحد لؤلؤة، وأدباء الرومانتيكية الفرنسية لمحمد غلاب وغيرها كثير. أما

النـقـد العربـي
بيـن الـتأصيل والتبعية

المترجمات فيكفي أن نشير إلى بعضها لأهميتها مثل النقد الأدبي لجيروم ستولينتز ترجمة فؤاد زكريا، وتشريح النقد لنورثروب فراي ترجمة د. محمد عصفور، ومن الظاهراتية إلى التفكيكية لوليم راي ترجمة يوئيل يوسف عزيز، وبحث في علم الجمال لجان برتليمي ترجمة أنور عبد العزيز، والخيال الرومانسي لسير موريس بورا، ترجمة إبراهيم الصيرفي، وكتاب قضايا في النقد الأدبي لِـ ك. ك. روثفن، ونظريات السرد الحديثة لوالاس مارتن، والبنائية الشعرية لجون كوهن، وغيرها كثير.

إن الثقافة النقدية العربية والأدبية هي بنت الثقافة الغربية على الرغم من محاولات تمرير مفاهيم النقد العربي القديم، وبعبارة أخرى فإن التقاليد الثقافية لم تتخذ بعد طابع الهوية الثقافية العربية لتصبح هذه التقاليد أساساً راسخاً لنظرية نقدية عربية. ويمكن أن نجد العذر لحركة العقل العربي الحديث الذي يتهم بأنه عقل تراكمي وليس عقلاً تركيبياً تحليلاً، لأنه لم يعط الفرصة ليثبت هويته، ولأنه لم يثبت بصماته على صدر صفحات حركة التاريخ الحديث، فالغرب تشكلت هوياته الثقافية بحكم حركة التاريخ منذ عصر النهضة في أوروبا ومنذ القرنين التاسع عشر والعشرين في أمريكا الشمالية.

إن انفتاح الوطن العربي على الثقافة الغربية أدى إلى تراكم إنتاج قرون في الساحة الأدبية والنقدية والفكرية والفلسفية العربية مما أدى إلى خلخلة بنية الفكر العربي، ووضعه في خانة أقل ما يمكن أن توصف بالإرباك، فالمدارس الأدبية والنقدية والفلسفية الغربية وضعت على مائدة الفكر العربي، ويكفي أن نشير إلى هذه المدارس مثل: الكلاسيكية الجديدة والطبيعية والرومانسية والتعبيرية والواقعية بأنواعها والرمزية والدادية والتكعيبية والسوريالية وأخيراً الشكلانية الروسية ومدرسة براغ والبنيوية اللغوية وتوالداتها مثل البنيوية التكوينية ثم السيميائية. ولا غرابة في ذلك من هذا المزيج النقدي الذي أرهق العقل العربي. ومثال ذلك البنيوية التي انتهت في فرنسا عام **1968** على يد مؤسسها رولان بارت ولكنها ما تزال سارية المفعول في ساحة النقد العربي دون البحث عن جديد، أو إضافة جديد. فالبنيوية اللغوية وفق رؤية سوسير هي النسق أو النظام الكلي، ولمعرفة أي سياق يجب البحث عن خصائص النسق الأصغر، أو الأنساق الصغرى في علاقاتها بعضها ببعض، وكذلك في علاقاتها بالنسق أو بالنظام الكلي. وتقوم البنيوية بعملية النقد في ظل ما يسمى

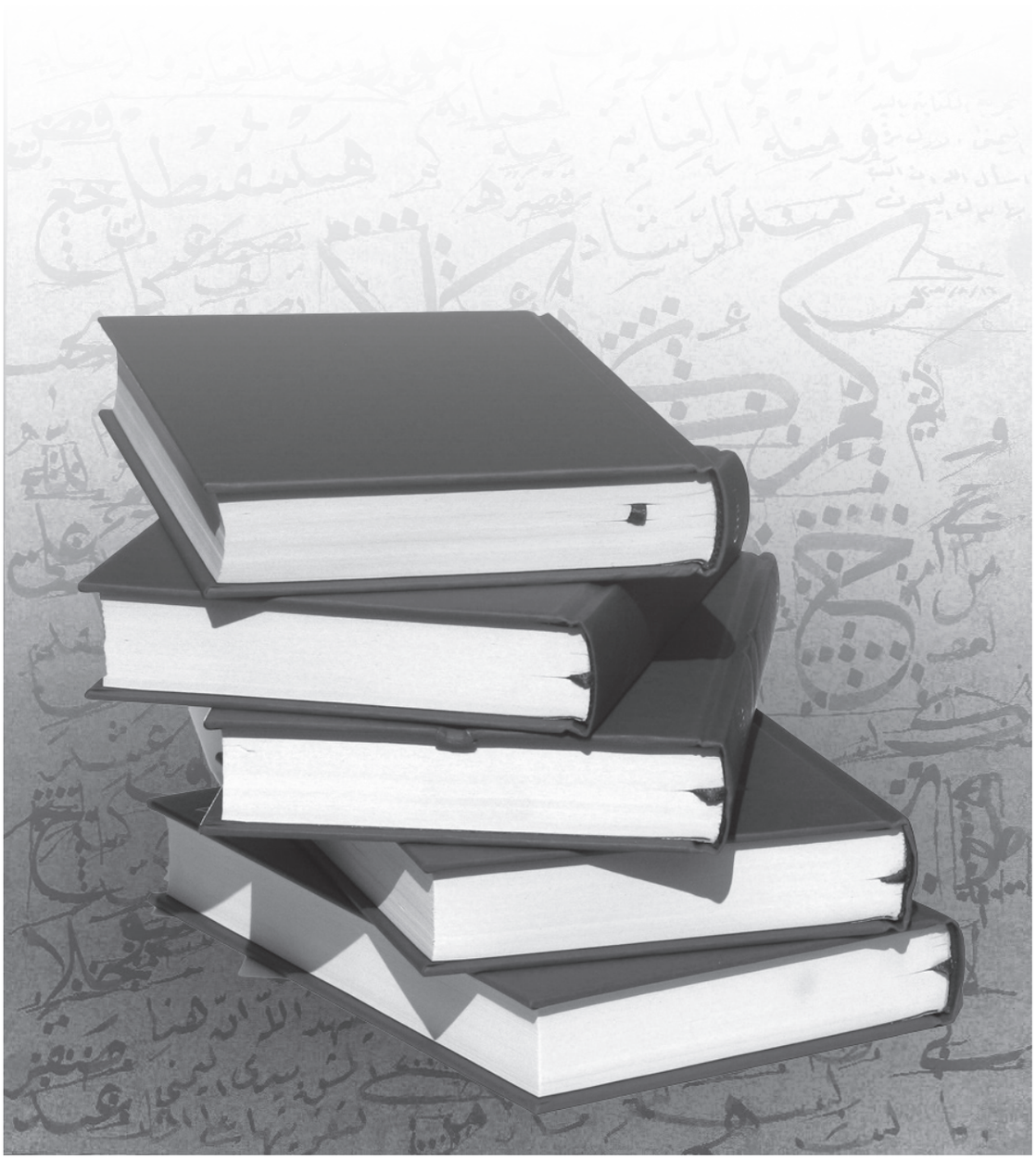

بالنوع الكامن، وذلك بنقد ما يتصل بشبكة علاقات اللغة، دون أن تحفل بالعالم الخارجي للنص، بما يكمن فيه من علاقات داخلية، ووسائطها اللغة فقط. وهي تكتفي بلعبة التحويلات دون أن تتعدى حدودها كما يرى بياجيه، أو دون أن تستعين بعناصر خارجية. وتتحدد البنية لديه ضمن ميزات الجملة والتحويلات، والضبط الذاتي أو الانتظام الذاتي كما يرى ترنس هوكز.

أما على صعيد السرد فإن حركة التاريخ وضغوطها الاقتصادية والسياسية عملت على بلورة المدارس النقدية، ومثال ذلك فإن النقاد في أوروبا وأمريكا حولوا الأدب إلى علم اجتماع في ظل الأزمة الاقتصادية الخانقة في فترة الثلاثينات، وبعد انحسار الأزمة الاقتصادية تحول الأمر باتجاه الاهتمام بالصفات الشكلية في حين قلل من شأن المظهر الاجتماعي، وذلك لتراجع ضغوط التاريخ نفسه.

وعلى صعيد الرواية التي تأصلت في القرن الثامن عشر وفق رؤية النقاد الإنجليز والأمريكان، إذ كانت وثيقة الصلة بالقضايا الاجتماعية والثقافية – استجابة للتغيرات في المجتمع والفلسفة ومفاهيم التاريخ كما يؤكد والتر آلان، وإيان وات. ولم يخرج النقد عن هذه الرؤية استجابة لضغوط التاريخ وفق المراحل والأزمات والضرورات الإنسانية والفنية كما يرى والاس مارتن في كتابه (نظريات السرد الحديثة).

وقد ألمح مناصرو الواقعية إلى وجود علامات انحلال في الرواية، وقالوا بقرب موت الرواية، وذلك ربما لاستبدال البناء الطبقي الذي يمدّ الرواية بموضوعاتها ومضامينها بالمجتمع الجماهيري لما بعد الرأسمالية الصناعية.

وفي ضوء هذه الرؤية فإن النقاد والدارسين ارتأوا توسيع دائرة الرواية إلى إطار أوسع تحت مسمى السرد، وبذلك اتسعت دائرة النقد، ودخلت مفاهيم جديدة، مثل «وجهة النظر» في كتابة النص – المؤلف والراوي وقراءته – القارئ–. ودخلت نظرية الفصل في المعرفة التي تظهر مثل تحليل الخطاب والذكاء الاصطناعي، وكذلك المدرسة السلوكية، التي فسحت المجال لاستشكاف العمليات المعرفية، وكذلك المدرسة الفرويدية وغيرها. كما تباينت المدارس النقدية في حقل السرديات، وبخاصة المدرستين الأمريكية والفرنسية ففي الوقت الذي تجنح فيه المدرسة الفرنسية. إلى الإبهام والغموض والإغراب في المصطلح، وأسلوب التعبير، وطريقة التناول فإن المنهج الأمريكي يتصف بالوضوح في المصطلحات، وصياغة الجملة، وأسلوب التعبير، وهي تقصد الهدف من أقصر السبل وأيسرها دون محاولة الالتفاف حوله، كما يرى والاس مارتن (نظريات السرد الحديثة).

وبدا تغيّر المنظور من دراسة الرواية إلى دراسة السرد، وكان كتاب (تشريح النقد) لنورثروب فراي نقطة تحول ومعلماً لمرحلة مهمّة في الانتقال من نظريات الرواية إلى نظريات السرد، وذلك لرؤيته تداخل الرواية والرومانس مع نوعين من التخييل النثري: الاعتراف – السيرة الذاتية – والتشريح «الذي يقدم رؤية للعالم بلغة نموذج فكري واحد» كما يرى والاس مارتن.